

الصناعات الحرفية في العصور القديمة

د. أكلي نورية
جامعة الجزائر(2)

تاريخ القبول: 2018-12-02

تاريخ الإرسال: 2018-11-27

تاريخ النشر: 2018-12-12

ملخص:

توضح لنا المصادر التاريخية للحياة الاجتماعية في العصور القديمة أن اقتصادها كان قائما أساسا على الصناعات الحرفية بشكل كبير. ورغم هذا فإن الحرفي لم تمنح له المكانة اللائقة به في تلك المجتمعات مع اختلاف وتنوع هذه الحرف من حيث التقنيات والمواد المستعملة وطبيعة الحرفة، فكان من الصعب تقييم تلك الأعمال ومعرفة قيمتها المالية والفنية. أما الوضعية الاجتماعية للحرفي فلم تكن واضحة المعالم في تلك الفترة التاريخية. لهذا سنحاول في مقالنا هذا عرض الصناعات الحرفية والوضعية الاجتماعية للحرفيين في العصور القديمة.

الكلمات الدالة: الحضارات القديمة؛ الصناعة؛ الحرفي؛ الصناعة الحرفية.

Abstract:

Historical sources of social life in ancient times show us that their economy was largely based on craftsmanship. Despite this, the craftsman was not given the proper place in these societies with the difference and diversity of these trades in terms of techniques and materials used and the nature of the craft, it was difficult to evaluate these works and knowledge of financial and technical value. The social status of the craftsman was not clear in that historical period. In this article, we will try to present the crafts and social status of artisans in antiquity.

Keywords: ancient civilization; industry; craftsman; craft industry.

مقدمة:

تبين المصادر التاريخية للحياة الاجتماعية في العصور القديمة أن اقتصادها كان قائما أساسا على الصناعات الحرفية بشكل كبير، فكانت الخبرة المتوارثة في العائلة هي أساس العمل اليدوي عبر الأجيال المتعاقبة، حيث كان الابن يساعد أباه ومنه يؤول الأمر إلى الأحفاد وهكذا حتى تأسست المدارس الحرفية الخاصة بالفنون اليدوية والورش. ومع تطور التقنيات أدخلت فنون أخرى على الموروث القديم وأصبحت أكثر تخصصا. فتزايدت الحرف وأصبحت بمثابة مراكز إشعاع في تلك الحقبة التاريخية، وشكلت مصادر أساسية يقوم عليها اقتصاد الحضارات القديمة.

لقد كانت الظواهر الاجتماعية في الفترة القديمة واضحة وبسيطة، حيث نشهد التخصص التدريجي للوظائف في تقسيم العمل اليدوي. وقد أبرز الفيلسوف ايكسنفون فوائد تقسيم العمل قائلا: "ليس من الغريب أن نرى في المدن الكبيرة منتوجاً من نوع ما أفضل صنعا مما عليه في المدن الصغيرة. وفي هذه الأخيرة، نجد نفس العامل الذي يصنع السرير، والباب، والعربة، والطاولة، وغالبا ما نجده أيضا يبنّي منزلا، وهو سعيد عندما يكون مشغولا تماما بكل هذه المهن لكسب لقمة العيش. من المستحيل أن العامل الذي يقوم بكل هذه الصناعات في آن واحد أن يتقن عمله. على العكس من ذلك، فعدد كبير من السكان لديهم نفس الاحتياجات في المدن الكبيرة فمهنة واحدة فقط تعيل رجلاً ويمارس تخصصاً واحداً. مثلاً مختص في صناعة أحذية الرجال وآخر في صناعة أحذية النساء ومنه من يقوم بخياطة الأحذية، وغيره من يقطع الجلود. وفي ميدان صناعة الملابس، نجد من يفصل الأقمشة، وآخر يخيظ القطع المفصلة. والشخص الذي عمله يقتصر على صناعة واحدة لا بد عليه من التفوق"¹.

1- مصطلح وتعريف الحرفة والحرفي:

تستخدم اللغة اليونانية القديمة مصطلحات تترجم غالبا بعبارة حرفي: *banausos*، *technitès*، *dèmiourgos*. وقبل التطرق لما تمثله عبارة "الحرفي" والنظر في معاني التسميات القديمة وسياقها، يمكن القول أن هذه المصطلحات لا توافق المعنى:

- *banausos* تبدو هذه العبارة أنها تمثل أنماطا من العمل اليدوي التي ينظر إليها المجتمع القديم على أنها مذلة، مقارنة بالأنشطة الفكرية²؛
- *dèmiourgos* هذا المصطلح يتضمن فكرة الإنتاج والإبداع، لفائدة المجتمع، يمكن تطبيقه على: القضاة، والشعراء *aède*، والمنجمون، والبناء الهيكلي³؛
- *technitès* هي عبارة تشمل المهارة المهنية في جميع الميادين كما إنها تطبق بصفة خاصة على الممثل والعازف الماهر⁴.

وتاريخ كلمة الحرفي « *faber* » هي عبارة عن فصل من تاريخ الحرف اليدوية في العصور القديمة. ومن المرجح أن كلمة « *faber* » تعني البناء الهيكلي فقط. وينطبق أيضا على العامل الذي يستعمل المواد الصلبة مثل الخشب والمعدن والعاج والحجر، وهو يتعارض مع العامل الذي يصنع الأدوات من مواد رخوة مثل الطين، والصلصال، والشمع، أو *Figulus fctor*. وعندما ظهرت صناعات أخرى معروفة، جمعت تحت اسم⁵ « *faber* ». وعلى أية حال، فإن هذه المهنة *technè*، والخبرة المكتسبة عن طريق التمهين في ورشة العمل أو ضمن خلية الأسرة والتي تمكنه من صناعة أداة، هو القاسم المشترك للحرفي والحرفيين الماهرين⁶. ومنه نستخلص أن الحرفة هو إنتاج مادي ليس إلا.

من الغريب أن مهنة الحرفي لم يمنح لها أي اعتبار أو تكريم عبر التاريخ، بالرغم من كونها من بين النشاطات الأساسية التي يقوم عليها اقتصاد المجتمعات القديمة، وربما يعود هذا التهميش للحرفي ومهنته إلى خاصية نشاطه الذي يتمثل في العمل

اليديوي والتقني وليس العمل الفكري، مقارنة ببلاغة الخطيب، وقدسية الكاهن، وبسالة المقاتل، وشجاعة الصياد، فالحرفي يُبرز أعماله وإنجازاته بمهارات يديه⁷. والغريب أن بعض المصادر التاريخية الخاصة بالمجتمع القديم تبين أن البعض من سكان المجتمع اليوناني لم يحتقر لا العمل اليديوي ولا من يكرس حياته لذلك⁸.

2-المكانة الاجتماعية للحرفي في الحضارة القديمة:

إذا أخذنا بعين الاعتبار الدراسات التي أجريت حول وضعية الحرف في عهد الحضارة اليونانية نجد أنها معقدة. ويبرز لنا مفهوم عبارة *technê* بمدلول واسع، وتعتبر السياسة من ضمنها. ولقد أشار أفلاطون إلى مكانة الحرفيين في المجتمع القديم حيث وضعهم بنفس مرتبة المزارعين، ثم يليهم الفلاسفة والمقاتلون، وأسهب في توضيح وإبراز العمل الحرفي.

كما وجدنا نصوصا ترجع لـ سوفوكل بها مقاطع رائعة تمجد البراعة الحرفية للإنسان في تلك الحقبة التاريخية، وكذا نجد لدى الذهنية الارستقراطية التقليدية التي غمرتها فكرة الحرية بالمفهوم اليوناني والمتمثلة في كون: " الحر هو العامل الذي لا يكون تابعا"⁹، مع العلم أن الحرفي بطبيعته يخضع للزبون، حيث نلاحظ تناقضا في الذهنية اليونانية من ناحية إعجابها بالذكاء التقني، ولكن بالمقابل نجد مكانة العامل الحرفي الاجتماعية في الحضيض، وهكذا يمكن اعتبار الحرفي بمثابة إنسان حر، غريب عن المدينة، أو كعبد من العبيد¹⁰. ومسألة وضعية الحرفي في المجتمع القديم لا تزال مطروحة إلى يومنا هذا.

3-المفاهيم القديمة للصناعة الحرفية عند الفلاسفة في الفترة القديمة:

إن فكرة التمييز بين الفن والحرفة، وبين الفنان والحرفي لم تكن معروفة ولا متداولة عند القدماء كما هو الحال اليوم، حيث كانت العبارات نفسها تستعمل لتعيينهم¹¹، فمصطلح الحرفي يطلق على كل من يمارس عملا يدويا. كما أدرج الفنان ضمن هذه الفئة. ونجد تعبيراً عن العمل في المجتمع القديم وخاصة الأعمال اليدوية في النصوص القديمة. ومن الفلاسفة الذين تطرقوا لهذا المفهوم نذكر:

-الفيلسوف هزئود:

حيث أوصى وحث كل الناس على العمل، وجعل من العامل في مرتبة عالية عند الآلهة وعزیزا عند الإنسان، وأن القيام بالحرفة ليس مخجلاً قط، والعار لا يكون إلا للكسول والخامل، وعلى الحرفي أن يتعلم الطاعة ولا يمكن له أن يأمر طالما هو تابع للمدخل الذي يمكنه من العيش¹².

- الفيلسوف هيرودوتس:

إن اختلاف الآراء السائدة بشأن هذا الموضوع ليست مسألة سهلة، وإنما الأمر يتعلق بالسياسة والاقتصاد¹³، فالشعوب البربرية وكذا الطبقة الأرستقراطية احتقرت الفنون اليدوية والحرفيين معاً، والتحيز الذي لوحظ ضد الحرف والعمل اليديوي عبارة عن رأي عام: "وأنتساءل فيما إذا كان اليونانيون قد ورثوا هذه العادة من المصريين؟ لأنه تبين وجودها بين مجتمعات أخرى كالتركيون، والفرس،

والليديون، والسيتيون. ويمكن القول أن أولئك الذين تعلموا الفنون اليدوية وحتى أطفالهم يعتبرون في نظر الشعوب البربرية أدنى وأحقر الأفراد في المجتمع¹⁴.

- الفيلسوف صولون:

منع على شرفاء الفترة القديمة صناعة العطور ورغم اختفاء الحظر بقيت فكرة التحيز قائمة بين الشعوب، ولكن منذ القرن الخامس كان أصحاب المصانع المعروفة مثل Cléon أو Képhalos يتمتعون برتبة مختلفة عن الحرفيين البسطاء، وأصبح العمل في ورشات الصناعة اليدوية أهم من العمل في المناجم. في حين أن الاختلاف لم يكن كبيراً بين المعلم ورفقائه وبين الحرفيين والعمال¹⁵.

- الفيلسوف توسيديد:

في مجال الصناعة ولفترة طويلة كان التمييز بين الأفراد والعمال قائماً على أساس أخلاقي في السلم الترتيبي للمهن، ولم تمنع الديمقراطية ذلك¹⁶.

- الفيلسوف إكزينوفون:

كانت الفنون اليدوية محتقرة ومستخفاً بها وهذا الأمر عادي في الفترة القديمة، لأن الحرف اليدوية في نظرهم تُكسب أصحابها أجساماً ضعيفة، وتجبرهم على العيش في الظل جالسين على مقاعدهم لفترات طويلة بعيداً عن أعين الناس، وأحياناً البقاء لمدة طويلة بالقرب من النار على حسب طبيعة الحرفة. ومن هذه الوضعية فإن الحرفي يفقد جميع طاقاته، وزيادة على ذلك فإن الفنون اليدوية لا تترك فرصة لصاحبها ليقوم بأي عمل مفيد له أو لمجتمعه¹⁷.

- الفيلسوف أرسطو:

لا يعترف ولو من باب الفرضية الميتافيزيقية أن الحرفي أو التاجر شخص فاضل، فهو يدين بلا هوادة كل عمل لا ينحدر مباشرة من الطبيعة ويتشبه من قريب أو من بعيد بالثروات chrématistique، ويعتقد أن هناك ثلاثة أشكال من الأنشطة البشرية: المعرفة، والعمل، والإنتاج. وقد كان اللسان الأمين لمشاعرهم عندما كتب: إن الحرفيين هم أقرب إلى العبيد، ولا تقبل بهم أي مدينة ضمن صفوف المواطنين ولو اعترفت بهم فلن تمنحهم كامل الحقوق المدنية، لأن هذه الأخيرة يجب أن تمنح للأشخاص الذين يعفون من العمل لأجل العيش¹⁸.

- الفيلسوف أفلاطون:

وقد كتب في هذا السياق أن جمال الجسد وجمال الروح مقترنين، والنشاط الذي يجعل الجسم مشوهاً هو يمسح النفس، فالرياضة تناسب حرية الفكر الفيلسوفي. إن ظلام الورشة والمشقة والخضوع للآخرين ينتج عنه نفوساً مزيفة لا تدرك مفهوم الحرية وتهتم فقط بالربح¹⁹.

- الفيلسوف بلوتارك:

يعود موقفه إلى الفترة ما بعد العهد الروماني. حيث يظهر فيها استمرارية في رؤية الفن اليدوي: معاناً أن أي شاب صالح ترعرع في محيط ثري لا يريد أن يصبح كفيدياس أو بوليكلات، لأن كل فنان يقوم بعمل بيديه يعتبر حرفياً مثل الآخرين:

فرغم أن العطارين والدباغين هم حرفيون بسطاء وما ينتجونهم يسعد الجميع فليسوا بأشخاص أنذال²⁰.

خاتمة:

وفقا لنظريات الفلاسفة المتضاربة، نستنتج أن القوانين القديمة أوصت بالعمل، بينما استتكرته عادات المجتمع²¹، فالمفهوم عند القدماء عن الحرفي أنه شخص محدود في فكره وهو محصور في الصورة الذهنية التي سوف يشكلها حتى إنهاء انجاز تحفته، ومن ثم، فإن فكرة احتقار الأشخاص العاكفين على ممارسة الفنون اليدوية ليست منحصرة عند البربر فقط، كما عند التراكيون، والسيتيون، والديون، والفرس، بل هي موجودة كذلك عند المصريين وبعض اليونانيين الذين تبنا نفس المفهوم.

ولاكتساب الفرد حق المواطنة يجب أن يكون متحرراً من الأعمال اليدوية ويكرس حياته لاستخدام الأسلحة أو مشاركا في الصراعات السياسية أو الأعمال التي تتطلب الذكاء²². إذن فحق المواطنة يكتسبه من يُتقن الكتابة. هذه الأخيرة حسب ريناتش وسيلة لإضفاء حيوية على الصورة، فلولاها لما استطعنا التعرف على مواضيع الفنانين القدامى، فالكتابة تنعش الصورة رغم كونها صامتة كما أن المعرفة تحيي الخطاب، والكتابة تحيي الصورة²³، وحسب الفيلسوف توسيديد²⁴ فإن العيب لا يكمن في كون الإنسان فقيرا، وإنما في كونه كسولاً.

ولقد تطورت النظرة عن الحرفي مع ظهور الديمقراطية في تلك الفترة، فمن احتقرته الأرستقراطية وأذلتها، جاءت الديمقراطية رفعت شأنه وشرفته. وبالتالي فإن الديمقراطية هي التي كانت العامل الرئيسي في ازدهار الصناعة اليدوية حيث مجدها باتجاه الصناعة والتجارة والتبادل التجاري عبر البحار، وفتحت المجال لإيجاد فرص العمل أكثر فأكثر للحرفيين وإبراز هذه الفئة من الناس فغيرت لها مصيرها.

¹ Xénophon, Economique, I,8

² Austin (M.) et Vidal-Naquet (P.), *Économies et sociétés en Grèce ancienne*, Paris 1972, p.23.

³ Idem, p.24

⁴ Idem, p.186

⁵ Saglio(E.), « *Fabri* », Dic.Ant.Gr.Rom, T.II, Paris 1918, p.947.

⁶ Idem, p.831-834.

⁷ Leroi-Gourhan (A.), *L'homme et la matière*, Paris, 1971, p.242.

⁸ Caillemer, *Artifices*, in Dic.Ant.Gr.Rom, 1918 T.I, p.441-446

⁹ Bonnard (A), *civilisation Grecque, Sophocle et Oedipe : répondre au destin*, chap.4, Paris 1991, p.500.

¹⁰ Austin (M.) et Vidal-Naquet (P.), *Op.cit*, p.11-46.

¹¹ Caillemer (E.), « *Artifices* », in Dic.Ant.Gr.Rom, T.I 1918, p.441

¹² Hesiod, *les travaux et les jours*

¹³ Glotz (G.), *Op.cit*, p.193

¹⁴ Hérodote, *Histoire*, I,67.

¹⁵ Solon, *Àux muses*, I

¹⁶ Thucydide, *Liv.II*, XL

¹⁷ Xénophon, *économique*, IV, 2

¹⁸ Aristote, *Polit* Chap.III, 3,2 et Chap. VIII, 2 et 5

¹⁹ Platon, *République* VI,495d-e

²⁰ Plutarque, Liv.I, T.III, 45

²¹ Xénophon, économique,.IV,2

²² Humbert(G.), « Artifices », Dic.Ant.Gr.Rom, p. 448

²³ Reinach (S.), « Iconographie grecque et romaine », in : B.L.S.A.B. nouvelle série 5.1987, Lyon, p.7-9

²⁴ Thucydide, Liv.II, XL